الباب الأول

مدرسة الإسلام

إن الله سبحانه يوم خلق الأرض ميزها عن سواها من الكواكب والنجوم وزينها بزينة الحياة، وأوجد لها الجو اللطيف، والهواء النقي والماء العذب والحيوانات المختلفة، والنبات الجميل، ثم أهبط إليها أكمل مخلوق إذ جهزه بالعقل والقوة، وفتح له باب العلم، وسخر له ما فيها وما فوقها، وأعطاه الحرية والاختيار، كل ذلك ليقوم بخلافة الأرض وعمارتها، وأرسل إليه رسلاً يقودونه ليقوم بهذه المهمة العظيمة ولينشىء فيها المجتمع المثالي والحياة الرغدة والسعادة الدائمة.

فلما انحرف هذا المخلوق وجانب جادة الصواب وأساء وأفسد ولم يقم بمهمة التكليف فسد المجتمع، وغرق الناس في بحر الجهل والظلم ونمت فيهم الأخلاق الفاسدة من أنانية وجنوح، وأصبحوا ما بين ظالم ومظلوم ومالك ومملوك وسعيد وشقي، وعم البغي والفساد. عند ذلك أنشأ الله سبحانه للناس كافة مدرسة واحدة منهاجها واحد، ووظف فيها معلماً واحداً جهزه بإمكانيات عظيمةٍ من إيمانٍ وخلق وعلم ووحي، وذلك ليعلم البشرية ويربي الناس ويهذبهم ويوجههم الوجهة الصحيحة التي تتأمن بها سعادتهم الدائمة، وتتحقق عمارة الأرض، وإطاعة الله ملك الوجود سبحانه وتعالى.

وهكذا منذ ما يقرب من ألف وأربعماية سنة افتتحت مدرسة (لا إله إلا الله) في مكة المكرمة من جزيرة العرب ولأول مرةٍ في التاريخ، وفي عصر عمَّ فيه الجهل وسوء الخلق، عند أمة لا تقرأ ولا تكتب ولا تعرف من العلم شيئاً؛ امتازت بالأنانية واتباع الشهوات وقساوة القلب، وامتازت بالتفرق والشتات والفقر والحرمان، واستقرَّت بين دولتين عظيمتين قويتين طاغيتين.

قامت هذه المدرسة الصغيرة ذات المعلم الواحد فحاربتها البشرية كلها رجالاً ونساءً، أفراداً وجماعات، قبائل ودولاً؛ فصمدت وقاومت وصبرت، فلم تلبث أن اتسعت وكثر أفرادها وعظم شأنها وخرَّجت رجالاً أبطالاً ونساءً فاضلات، وملوكاً مثاليين، وعلماء عاملين، وقواداً محاربين.، ثم أصبحت مملكة عظيمة حطمت العروش الباغية وساوت بين الناس وأعادت لكل إنسان حريته وحفظت له كرامته وعلمته وهذبته وكفلت له حقوقه التي وهبه الله إياها ووضعته في مكانته التي يستحقها بعلمه وأخلاقه وعمله، وسارت به في طريق السعادة والهناء.

هذه المملكة أصبحت فيما بعد أعظم مملكة في التاريخ، دامت ولا تزال ولن تزول رغم ما مرَّ بها من أهوالٍ وحروب وعداوات. تهزأ بالعواصف والعوادي، وأصبح أفراد شعبها أكثر من ألف مليون، هذه المملكة هي (الإسلام).

بدأت هذه المدرسة في غارٍ صغير على جبلٍ منعزل عن البنيان في صحراء جافَّة خاوية خالية، ونزل إليها الدرس الأول من السماء ﴿**اقْرأ باسم ربِّكَ الذي خلقَ، خَلقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ. اقرأ وربُّك الأكرمُ الذي عَلَّم بالقلم. علَّم الإنسان ما لم يعلم**﴾[1]. فكان هذا الدرس نقطة البدء إذ بدأ به عصر العلم والحضارة. وقسم هذا الدرس التاريخ إلى شطرين شطر قديم جاهل متخلف مضى وولى، وشطرٍ جديد فيه الخلق والعلم والمدنية والرفاهية والبناء والاختراع والإبداع.

نزل محمد ﷺ المعلمُ الأول من الغار فوجد نفسه قد انتقلت من نفس إنسانٍ عادي أمي لا يعرف شيئاً ولم يقل من البلاغة شعراً ولا نثراً، إلى أعظم بشرٍ في الدنيا علماً وأدباً وبلاغة وذكاءً وحزماً وعزماً. كيف لا وقد أصبح أمير الأنبياء وسيد الرسل وأبا الناس جميعاً إذ قال له رب الوجود ﴿**ياأيُّها النبيُّ إنَّا أرسَلْناك شاهِداً ومُبشراً ونذِيْراً، ودَاعياً إلى الله بإذنه وسِرَاجاً مُنيراً**﴾[2].

ثم جاءه الأمر الإلهي ﴿**يا أيُّها المدَّثِّرُ، قمْ فأنذِر، وربَّك فكَبِّر، وثيابَكَ فطهِّر، والرُجزَ فاهجُرْ ولا تَمنُن تستكثِرْ ولربِّك فاصبر**﴾[3].

---

(١) سورة العلق.

(٢) الأحزاب ٤٥، ٤٦،

(٣) أول سورة المدثر.

فقام يدعو البشرية كافة في البيوت والطرقات ويقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله. واتركوا ما أنتم فيه من أصنام وخرافات وأوهام. دعاهم إلى مدرسة الملك الحق المبين، فأبى الناس وشرعوا يحاربونه بما استطاعوا، بألسنتهم ودعايتهم، وبمكرهم وبكل ما عندهم، فصبر وثابر وضحى بكل ما بدنياه حتى انتصرت مدرسته وانتقلت المدرسة بعد ذلك إلى الجامع، ثم تطورت فأصبح لها جوامع وجامعات ومدارس ومجتمعات ومعلمون ومعلمات يعدون بالألوف بل بالملايين. ولا تزال تتسع ويزداد روادها. فعمت الكرة الأرضية، كما حدَّث محمد ﷺ عنها يوم لم يكن معه إلا حفنة من الأتباع الضعاف إذ قال: «ليبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلا أدخله هذا الدين». كيف لا وصاحب هذه المدرسة هو الله الواحد القهار.

الفصل الأول

برنامج المدرسة

برنامج مدرسة الإسلام هو القانون الإلهي «القرآن» الذي نزل على رسوله الكريم، ومعه حديث هذا الرسول العظيم «وهو وحي من الله تعالى» وما فعله محمد ﷺ في تطبيق هذه الشريعة المطهرة وتنفيذ أحكامها.

بهذا البرنامج انتقل الإنسان من حيوان ناطق جاهل، لا يدري كيف خلق، ولماذا خلق، وأين هو، وماذا أريد به، ولا اين يسير أو لمن يعمل؟ إلى إنسان مدركٍ عالم فعال إذ قال الله له: ﴿**ولقد كَرَّمنا بني آدَمَ وحَملناهُمْ في البَرِّ والبحرِ ورَزَقْناهُم مِنَ الطيبات وفضَّلناهُم على كثيرٍ ممن خلقْنا تَفْضِيلا**﴾[1].

كان يدرك الإنسان بحواسه، فأصبح يدرك ببصيرته وعلمه وعقله وشعوره؛ انتقل من الأوهام والخرافات والخيالات والأباطيل إلى الصدق المطلق والحقيقة الواضحة والواقع البيِّن وانتقل من المادة أو بعض المادة إلى ما فوقها من قوى تتضاءل دونها كل مادة.

وانتقل من خُلُق الغاب إلى خلقِ الملائكة، ومن شقاء

(١) الإسراء ٧٠.

الحياة إلى سعادة الدارين، ومن عبودية المخلوق والحجارة إلى عبادة الخالق. عرف بالإسلام ربَّ الوجود فاتصل به اتصال المخلوق بالخالق والموظف بالآمر، والمحتاج بالرازق؛ بل اتصال المحب بالمحبوب. وشعر أنه أصبح حراً لا سيطرة لمخلوق عليه فسعد بكرامته وعزَّته، واطمأن إذ وجد له من يحفظه ويطعمه ويسقيه ويدفع عنه السيئات ويدافع عنه وينصره ويعطيه كل ما سأل. علمه الإسلامُ أنَّه ليس في هذه الدنيا غريباً ولا مخلوقاً عادياً فهو سيد الدنيا كلها وخليفة الله في الأرض؛ السماوات والأرض وما فيها هي له، ملَّكه إياها ربه يتمتع بطيباتها، وهي دار له يعمرها بما علمه ربه وبما أمره وكلفه. وعلم أنه ليس وحيداً بل له إخوان على مرِّ الزمن قبله وبعده منذ آدم عليه السلام إلى يوم القيامة وهم الأنبياء والمؤمنون إذ قال ربه: ﴿**إنَّما المؤمنونَ إخْوَةٌ**﴾[1].

وعلم بالإسلام التاريخ منذ خلق الله الخلق إلى الأبد، وعلم بالإسلام مستقبله ومصيره. عين له ربه الهدف وشق له الطريق وأمره بالسير قدماً، وأنه سينال من السعادة على قدر همته وعمله ﴿**وأنْ ليْسَ للإنسانِ إلا ما سَعَى**﴾[2].

أما قواعد الإسلام التي ارتكز عليها فهي أربعة (الصدق، العقل، العلم، الواقع) فلا تجد فيه كذبة، ولا ما لا يقبله العقل، ولا تجد فيه ما يخالف الواقع، ولا ما يتعارض مع

(١) الحجرات ١٠.

(٢) النجم ٣٩.

العلم. وهو على عظمته دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لا عنت فيه ولا تعقيد ولا إرهاق، ولا هو صعب الفهم ولا عسير التطبيق.

وأما تأثيره في الناس فقد أوجد الإنسان المثالي الكامل من حيث الخلق واللطف والإيناس والإنتاج. وأصبح كأنه أمة قائمة بذاتها. كما أوجد نظاماً للأسرة لم تحلم به أية أمة أو مجتمع. وهيأ للناس دولة كالأم الرؤوم تحفظ للشعب حريته وأمنه وكرامته ومعاشه وعلمه وتربيته.

وأصبح به للناس مجتمعٌ مبنيٌّ على الأخوة والمحبة والتعاون والتناصح؛ لا فرق بين أبيض وأحمر ولا كبير ولا صغير ولا سوقة ولا أمير. جمع الشعوب على دين واحد وعقيدة واحدة، إلههم واحد؛ فهم أمة واحدة رغم بعد الدار واصطناع الحدود واختلاف الدول واللغات، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ هذهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدةً وأنا ربكم فاعْبُدُون﴾[1].

كثر أتباعه ويكثرون، وسوف يكثرون ويتمسكون به ولا يعدلون به شيئاً، رغم العواصف والحروب والتعذيب والقيود والجوع والعطش والسجون والسياط؛ ورغم كيد الأعداء ومبادىء السفهاء، ومدارس التبشير، والمبادىء الهدامة والمغريات الكثيرة، وحتى رغم الاستعمار والاستعباد وتزييف التاريخ وقلب الحقائق والاستعانة بالشهوات والمال والفساد

(١) الأنبياء ٩٢.

والحروب. رغم كل ذلك الإسلام ثابت ثبوت الزمن، ومن دخل فيه لم يخرج منه لأنه نور الحق رغم كل حجاب.

كم من جيوش كافرة حاربت المسلمين وغلبتهم واستولت على ديارهم وحاولت محو الإسلام منهم، فلما استقرَّت بينهم أسلمت وحسن إسلامها ثم دافعت عن الإسلام واستبسلت في الدفاع عنه وعن أهله وديارِه.

فلا غرو إذا فتح الإسلام عصر العلم وبدأت به الحضارة وأنار طريق السعادة لتحصل عليها البشرية بأيسر سبيل وأقل جهدٍ.

obeikandl.com

الفصل الثاني

الإسلام

هو إيمان بالله، وأخلاق حسنة، وعلمٌ وعمل. فمن آمن بالله وتخلق بخلقٍ حسن وتعلم وعمل بأحكام الإسلام اكتسب سعادة الدنيا والآخرة.

فالإيمان هو أن يعرف ويتيقن أنَّ هذا الوجود له إله واحد، له كل الصفات المثالية والكمال المطلق. وأنه خالق كل شيء وقائم بكل شيء وهو الملك المالك؛ وما عداه فهو مخلوق له خاضع لأمره. وهذا الإيمان تجمعه كلمة (لا إله إلا الله). وأنه سبحانه مطاع من قبل كل مخلوقاته تستجيب لأمره سواءً كانت جمادات أو نباتات أو حيوانات أو قوى أو إنسان. حتى لو عصاه إنسان أو سواه كان ذلك بمحضِ مشيئته لا قسراً عنه. ومثالاً على ذلك قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ استوىَ إلى السَّماءِ وَهيَ دُخان، فقالَ لها وللأرضِ ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين**﴾[1]، ﴿**وأوْحى ربُّك إلى النحلِ أن اتخذي من الجبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجر ومِمَّا يعرشون، ثمَّ كُلي من كلِّ الثمراتِ فاسلُكي سُبُل رَبِّك**﴾[2].

---

(١) فصلت ١٠.

(٢) النحل ٦٨، ٦٩.

والنحل تفعل ذلك كما أمرت. وقال سبحانه للجبال ﴿يا جِبالُ أَوِّبي مَعَه﴾[1] أي سبحي مع داود عليه السلام ففعلت ما أُمرت. وهكذا طهر الله سبحانه عقول البشر من الأوهام والخرافات وفساد الاعتقاد بألوهية غير الله.

وأما الأخلاق فقد جمع الإسلام كل الأخلاق الفاضلة كالصدق والأمانة واتباع الحق والعدل وحب الخير والكرم والاستقامة وسواها، وحرم سوء الأخلاق من الكذب والخيانة والظلم والبخل والقسوة وسواها.

وفرض العلم «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[2] والعلم بنظر الإسلام ثلاث أنواع: نوع لا بدَّ منه وهو الفقه أي تعلم أوامر الله ونواهيه ليعمل بها، وعلم دنيوي يختاره المسلم ليعيش منه وينفع به الناس كالطب والهندسة والنجارة والحدادة، فإذا قلَّ بين المسلمين أو فقد أي علمٍ من ذلك أصبح فرضاً لسد حاجة الناس. وعلم محرم وهو العلم الضار أو الذي لا نفع منه كالسحر والشعوذة. فمن تعلم علماً ليعبد به الله وينفع به نفسه والناس كان علمه عبادة لله يثابُ عليه ويثاب أيضاً على التعمق فيه.

وأما العمل فهو فرض على المسلمين ﴿وقُل اعْملوا فسَيرى الله عملَكُمْ وَرَسُوله والمؤمِنون﴾[3] أي ستجزون على

---

(١) سبأ ١٠.

(٢) ابن ماجه.

(٣) التوبة ١٠٥.

علمكم خيراً إن عملتم خيراً وبعلم وإتقان. فإذا آمن الإنسان وتخلق بخلق الإسلام وتعلم وعمل بعلمه أصبح إنساناً صالحاً ودوداً، وجعله الله له صديقاً ودوداً ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمنوا وعَملوا الصَّالحات سَيجعل لهمُ الرحمن وُدّاً﴾[1] وحبيباً كما تبين من قولـه سبحانه: ﴿قُل إنْ كُنتُمْ تحبونَ الله فاتبعُوني يحببكُمُ الله﴾[2]، ومن أحبه الله أعطاه خير الدنيا والآخرة ودفع عنه كلَّ شر وأعدَّ له جنة عرضها السماوات والأرض يخلد فيها بعد الموت.

والإسلام دين قديم جاءت به الرسل كلها من عند الله ابتداءً من آدم حتى آخر الرسل ﷺ لذا فقد كان لكل أمة رسـول منهم يبلغهم الإسلام مع بعض الأحكام والتشريع يتناسب مع مجتمعهم وعصرهم. فلما جاء محمد ﷺ أتى بالإسـلام للبشـرية كافـة ولكل عصر وبدأ به عصر العلم والحضارة والمواصلات، مما جعل الناس كافة كعائلةٍ واحدة، تسكن بيتاً واحداً هو الأرض كلها لكثرة المواصلات وسرعتها وأنواعها، فلم يعد يلزم إرسال رسول لكل قومٍ أو بلد، وكانت شريعته وأحكامه كافية وكاملة لكل قوم وجيل.

وكان كل رسولٍ لديه معجزة أو معجزات من ربه لا يستطيع البشر أن يأتي بمثلها تتناسب مع عقلية قومه وعصرهم كعصى موسى في زمن السحـر، وإبراء المرضى في زمن المسيح. زمن نما فيه الطب، وناقة صالح في زمن الأنعام،

(١) مريم ٩٦.
(٢) آل عمران ٣١.

وذلك تصديقاً للرسل الكرام، وقد انتهت هذه المعجزات بوفاة الرسل أصحابها. وكانت كل معجزة مقتصرة على رسولها يزاولها بذاته فعصى موسى مثلاً كانت تعمل بيد موسى لا بيد غيره ثم اختفت وذهبت لأنها معجزة مادِّية تدرك بالحواس فقط.

أما محمد ﷺ فكانت معجزته مادِّية فكرية علمية وهي القرآن يزاولها كل إنسان ويستفيد منها ويأخذها معه ويقتنيها ويحفظها وهي باقية ببقاء الوجود، وهي كلام الله بالذات بعكس باقي المعجزات إذ كانت من خلْقه سبحانه.

هذا وقد نزلت الرسالات السابقة بلغات الأقوام السابقة كل رسالة بلسان قومها؛ وفي عصور لم يكن للكتابة أثرٌ يذكر لذلك لم تدوَّن بل كانت شفوية تؤخذ من أفواه الرسل، وقليل من يتعلمها، لذا طرأ عليها النسيان والتحريف والتبديل والترجمة لأن لغاتها زالت واندثرت. أما القرآن الكريم الذي نزل بالقراءة والكتابة والعلم ﴿**اقْرَأْ بِاسمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَق، خَلَق الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ، اقرأ وَرَبُّكَ الأكْرَم، الذي عَلَّم بالقَلَمِ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلم**﴾[1] فدُوِّن لما نزل آية آية، وسورة سورة، ووضعت كلٌ منها في مكانها، وحفظه الناس برغبة وشغف. فلما توفي الرسول ﷺ كان القرآن مدوناً مكتوباً ومحفوظاً في صدور الألوف من الناس. وحفظ الله للقرآن لغته وتكفل بحفظه ﴿**إنَّا نَحْنُ نَزَّلنا الذكر وإنَّا لَهُ لَحافِظُون**﴾[2]

(١) سورة العلق. (٢) الحجر ٩.

لهذا حفظ الله القرآن، فلم يتبدل منه شيء ولم ينس منه شيء. ثم قيَّض الله علماء درسوه ودرَّسوه، وفسروه وكتبوا نسخاً من القرآن بالألوف، ثم هيأ الله الطباعة والمذياع والمبصِّر (التلفزيون) وكانت كتابته وحفظه وتعليمه ونشره قربة إلى الله وفيه الثواب العظيم فانتشر في كل بقاع الدنيا حتى لم يبق بيت أو بقعة أرض إلا وصل إليها الإسلام كما قال ﷺ في يوم كان الإسلام محصوراً في بضعة عشر شخصاً «ليبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار»[1].

أما المعجزة الثانية فهي أحاديث رسول الله التي كانت وحياً من عند الله نزلت بالفكرة وأذن للرسول ﷺ أن يصيغها بكلامه فهي مفسرة للقرآن وشارحة لأحكامه وقوانينه، وهي أهم معجزة وأجملها بعد القرآن الكريم.

وأما المعجزة الثالثة فهي محمد ﷺ بالذات والصفات، فكان أعظم إنسان وأكمل بشر يوم ألبسه الله ثوب النبوة وانتقل من إنسان عادي إلى أعظم مخلوق.

وأما المعجزات الأخرى المادية فهي كثيرة كانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه وإطعام الكثير بالقليل من الطعام وسواها، إلا أنها تضاءلت أمام معجزة القرآن الكريم.

هذا وللإسلام معجزات أخرى كثيرة حدثت وتحدث يوم يطبق الإنسان شريعة الله تعالى.

---

(١) أحمد.

الفصل الثالث

الله تعالى

إن أهم ما بالإسلام هو معرفة الله سبحانه والإيمان به. فقد عرَّفنا سبحانه بذاته بواسطة الرسل الكرام وبمصنوعاته من سماء وأرض وإنسان ونبات وسواها، وسمَّى نفسه فقال: ﴿إِنَّنِي أَنا الله لا إله إلاّ أنا﴾[1] ولم يتسم أحد باسمه ولن يتسمى فـ ﴿هَلْ تعلمُ لَهُ سَمِيّاً﴾[2]، إنه ليس كمثله شيء فلا تدركه الحواس لعظمته وعزَّته، لا شريك له ولا ولد. له أسمى الصفات وأكملها، ولا حدود لصفاته ولا أوَّل له ولا آخر. خالق كل شيء ومدبِّره وقائم به، فعالٌ لما يريد. يرى ويسمع ولا يخفى عليه شيء ﴿وكلُّ شَيءٍ عِندهُ بِمقدارٍ﴾[3].

هذا بعكس ما في الدنيا من أديان ومذاهب، وقد صلَّح الإسلام مفاهيم الناس في هذا الشأن وناقشهم وحجهم بالمنطق والمعقول، وفنَّد كل عقيدةٍ منحرفة وأثبت فسادها بالحجة والبيان.

فبدأ بالإلحاد والملحدين الذين يقولون بأن الموجودات أوجدت هكذا صدفة بغير خالق، فقال سبحانه عنهم: ﴿أَمْ

---

(١) طه ١٤. (٢) مريم ٦٥. (٣) الرعد ٨.

خُلِقُوا مِنْ غيرِ شيءٍ أَمْ هُمُ الخالِقُونَ، أَمْ خَلَقوا السَّماوات والأرضَ بَلْ لا يوقِنُون. أم عِندهُمْ خَزائِنِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المُصَيْطِرونَ، أَمْ لهُمْ سُلَّم يَستمعونَ فيه فلْيأت مُستمعُهمْ بِسُلطانٍ مُبين﴾[1]. وقال لمن ادعى الألوهية: **﴿فإنّ الله يأتي بالشَّمْسِ مِنَ المَشرِقِ فأتِ بها مِنَ المغرب فبُهِتَ الذيْ كَفَرَ﴾**[2].

وقال لمن جعل مع الله شريكاً أو ولداً **﴿لَوْ كانَ فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا﴾**[3]. أي لأدى اختلافهم لفساد السماوات والأرض.

وقال لمن عبد غيره من حجارة أو إنسان أو أي مخلوق: **﴿إنَّ الذينَ تدْعُون مِنْ دُونِ الله لَنْ يخلقوا ذُباباً ولوِ اجتمعوا لهُ﴾**[4] فضلاً عن أن يخلقوا سماوات أو أرض أو سواهما.

وقال لمن عبد المسيح بن مريم وأمه **﴿ما المسيحُ ابنُ مَرْيم إلا رسُولٌ قدْ خلتْ مِنْ قبلِهِ الرُّسُلُ، وأُمُّه صِدِّيقةٌ، كانا يأكُلان الطعام﴾**[5] أي كانا إنسانين محتاجين إلى الطعام ولإخراج فضلات الطعام، فلا يمكن لمن هذه صفاته أن يدير مملكةً حدودها تقاس بألوف الملايين من السنين الضوئية بل لا حدود لها لعظمتها.

---

(١) الطور ٣٤ ـ ٣٨.

(٢) البقرة ٢٥٨.

(٣) الأنبياء ٢٢.

(٤) الحج ٧٣.

(٥) المائدة ٧٥.

وقال لمن جعل لله صفات نقص كاليهود الذين قالوا عنه أنه فقير وبخيل وعاجز ويحتاج لمن يشير عليه من البشر **﴿سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون﴾**[1].

إن الله سبحانه آمرٌ في ملكه يستجيب له كل شيء ويشهد بوجوده وكماله **﴿وإنْ مِنْ شيءٍ إلا يُسبِّحُ بحمدِهِ وَلَكِنْ لا تَفقهُونَ تسْبيحهُم﴾** [2].

فالسموات والأرض تستجيب له **﴿ثُمَّ استوىٰ إلى السَّماءِ وَهي دُخانٌ فقال لَها ولِلأرْضِ ائتيا طوْعاً أو كرْهاً قالتا: أتينا طائِعين﴾**[3] ونادى الجبال **﴿يا جبالُ أوّبي معه﴾**[4] أي قال للجبال سبحي مع داود ففعلت **﴿وأوْحى ربُّكَ إلى النَّحل﴾**[5] ففعلت ما أمر سبحانه.

وهكذا عرَّف الله سبحانه البشر بذاته وصفاته أعظم معرفة وأشملها وأدقَّها وشفى العقول من الزيغ والضلال والضياع والخرافات.

ثم أوجد الإسلام صلة وثيقة بين الإنسان وربه. وعرفه أن الله خالقه وملكه ومربّيه، يسمع كل كلمة يقولها، ويراه ويرى أعماله ويطلع على ما في تفكيره وقلبه ويحاسبه على

---

(١) الزخرف ٨٢.
(٢) الاسراء ٤٤.
(٣) فصلت ١١.
(٤) سبأ ١٠.
(٥) النحل ٦٨.

كل ذلك بالعدل المطلق مع أنه رحيم به غافر لذنبه ولتقصيره، يعامله بكل لطف ويعطيه عن كرم محض، إذا تقرب العبد منه وأطاعه أصبح صديقاً له ﴿إنَّ الذينَ آمنوا وعملُوا الصَّالِحات سَيجعلُ لهُمُ الرَّحْمن وُدّاً﴾[1] وقد يجعله الله ولياً أو حبيباً ﴿قُلْ إنْ كُنتُمْ تُحبُّونَ الله فاتَّبعوني يُحببكُم اللهُ ويَغفر لَكُم ذنوبكم﴾[2].

وعرَّف الإسلام الناس أن الله غني عنهم وعن أعمالهم، وأنه خلقهم ليسعدهم على أن يطيعوه، وأعدَّ لهم بعد الموت حياة الخلود والنعيم.

وأعلمهم أن الله محبٌ لهم وأنهم موظفون عنده برتبة خلفاء في الأرض ليعمروها ويزينوها بالعدل والعلم والعمل الصالح وكل ذلك لمصلحتهم لأنه غني عن كل ذلك. ﴿هُوَ أنْشأكُمْ مِنَ الأرضِ واستعمَركُمْ فيها﴾[3]. ورغبهم بما عنده من خيرات بمجرد أن يطلبوا ذلك منه ﴿وَقَال ربُّكُمُ ادْعُوني أسْتجبْ لكُم﴾[4] وإذا استجاروا به أجارهم ﴿أمَّنْ يُجيبُ المُضطرَّ إذا دعاهُ ويكشفُ السُّوء ويَجعلكُمْ خُلفاء الأرض أإلَهٌ مع الله قَليلاً ما تَذكَّرُونَ﴾[5].

وفتح لهم باب الرجاء وأغلق باب اليأس والقنوط فقال

---

(١) مريم ٩٦.
(٢) آل عمران ٣١.
(٣) هود ٦١.
(٤) غافر ٦٠.
(٥) النمل ٦٢.

سبحانه: ﴿إِنَّهُ لا يَيأس مِنْ رَوْحِ الله إلاّ القومُ الكافرونَ﴾[1] ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الذينَ أَسْرفوا على أنفسِهِمْ لا تَقنطوا مِنْ رحمةِ الله إنَّ الله يَغفرُ الذُّنوبَ جميعاً، إنَّهُ هُو الغفورُ الرَحيمُ﴾[2].

وهكذا لم يترك الإسلام عذراً لأحدٍ في الكفر أو البعد عنه، ولم يدع مجالاً لكل خرافةٍ أو وهم أو ضلال. أي أن الله سبحانه غسل بالإسلام العقل البشري فجعله نقياً صالحاً لا يقبل إلا الحقيقة والواقع. وغسل الفكر بالمنطق والبيان والعلم والإعجاز، وطهره من كل زيغ وفساد. وبذا فإن الله سبحانه ﴿يُرِيدُ لِيطهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نعْمتَهُ عَلَيكُمْ لَعلَّكُمْ تَشكرُون﴾[3].

---

(١) يوسف ٨٧.

(٢) الزمر ٥٣.

(٣) المائدة ٦.

الفصل الرابع

محمد ﷺ

ولـد في مكـة بيت الله الحرام إلا أنها كانت مملوءة بالأصنام، وكان أهلها أهل جاهلية عمياء لا علم فيها ولا كتابة ولا قراءة، دان العرب لهم لأنهم كانوا سدنة البيت وكهان الأصنام.

ولد ﷺ في عصرٍ ساد فيه الجهل المطبق وسوء الخلق والأنانية، وفي الصحراء العربية القاحلة حيث لا دولة فيها ولا نظام، شريعتها شريعة الغاب لا تتصل بما جاورها من أمم ولا دول إلا اتصالاً محدوداً قلَّ فيها من يسافر من قطر إلى قطر أو يفارق بلده أو صحراءه.

فنشأ ﷺ صادقاً أميناً منعزلاً عن مجتمع قومه لا يتلاقى معهم إلا في الكسب أو الطعام أو السكن. ولم يتصل بمعلم أو كاهن أو رجل دين، وكان كارهاً لما كان عليه قومه من عبادةٍ وانحراف ومجون، فلم يسجد لصنم ولم يحضر أنديتهم وسمرهم. وبصورة عامة قضى أربعين سنة من عمره كإنسان عادي بسيط ولكنه صادق وأمين.

وفي ليلة وهو في سنِّ الأربعين في غار حراء على رأس

جبل أتاه الناموس الذي نزل على موسى ﷺ وهو جبريل عليه السلام يبلغه رسالة ربه ويقرأ عليه أول تكليف إلهي وأول ما يجب عليه أن يعمله هو والناس أجمعون ﴿**اقْرأْ باسْم ربِّكَ الذي خلقَ، خَلقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ. اقرأْ وربُّك الأكرمُ، الذي عَلَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم**﴾[1].

فألبسه الله ثوب النبوة وتوجه تاج الرسالة وهي أعظم ما أعطى ربنا لمخلوقٍ من منزلةٍ عليا ومكانةٍ رفيعة في الدنيا والآخرة.

فظهرت صفات الرسل من علم واسعٍ وصفات مثالية وشجاعة فائقة وكرم جم وإخلاصٍ كامل وهمة عليا وتصميم عجيب، وجاذبية حببت به أهل الأرض والسماء، وقيادة مثلى وهيبة عظيمة وزهدٍ كامل وبلاغةٍ عجيبة، وأصبح أعظم مخلوق أُوتي بياناً لا يدانيه فيه أحد، وعملاً تعجز عنه الأمم. فكان أعدل مخلوق وأكثر إنتاجاً.

ثم جاءه الأمر الإلهي ﴿**ياأيُّها المُدَّثِّرُ قُمْ فأنْذِرْ، وَربَّكَ فكبِّر**﴾[2] فخرج على الناس بعظمة الرسالة وحجة الله البالغة ينادي أهل الأرض قائلاً: «أيها الناس إني رسول الله إليكم قولوا لا إله إلا الله تملكوا الدنيا وتدخلوا الجنة» ويقول: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً، ما غررتكم، والله الذي

---

(١) العلق.

(٢) المدثر.

لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتنَّ كما تنامون ولتبعثنَّ كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءً، وإنها لجنة أبداً أو لنارٌ أبداً»[1].

فعاداه أهله وعشيرته ولم يستجيبوا له وكذبوه واتهموه بالسحر والجنون والكذب، لأنهم علموا أنهم إن أطاعوه زالت عنهم رئاسة العرب وسيزول عنهم كبرياؤهم وصلفهم ولهوهم. وهكذا خاض ﷺ حرباً ضروساً مع قومه وعشيرته ثم مع الناس أجمعين.

وظلَّ صامداً صابراً محتسباً مبتسماً حليماً حازماً موقناً بالنصر لأن الله معه وكفى بالله نصيراً.

دعا إلى الله السنين الطوال، وصبر صبر أولي العزم من الرسل حتى بلغ غاية الظفر وأعلى درجات الفوز، فقاد الملايين من الناس في الدنيا ومن كل جيل وزمن، وقاد ألوف الملايين في الآخرة إلى الخلد والنعيم.

هذا محمد ﷺ كما حدث عنه ربه وحدث عن نفسه وحدث عنه أصحابه والناس. فقال الله تعالى له: ﴿وإنَّك لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2] ﴿وَما أرْسَلناكَ إلَّا رَحْمةً لِلعالمِيْنَ﴾[3].

---

(١) ابن الأثير.

(٢) ن.

(٣) الأنبياء ١٠٧.

ويقول ﷺ: «أدَّبني ربي فأحسن تأديبي»[1] «إني لم أبعث لعاناً ولكني بعثت رحمة»[2] «أوتيت جوامع الكلم»[3] «إني فيما لم يوح إلي كأحدكم»[4].

وقال فيه أصحابه «كان خلقه القرآن» «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله»، «كنا والله إذا احمرَّ البأس نتقي به وإن الشجاع منا للَّذي يحاذي به في الحروب»، «كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه في الصلاة». «كان يكره أن يطأ أحد عقبه تواضعاً» فكان لا يسمح لأحد أن يمشي وراءه، «كان لا يدَّخر شيئاً لغدٍ بل ينفق كل ما معه»، «كان أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس»، «ما ترك رسول الله ديناراً ولا درهماً ولا شاةً ولا بعيراً ولا أوصى بشيء عند وفاته».

ويقول المسلمون عنه وهو أحب إليهم من أنفسهم وأهلهم والناس أجمعين:

دع ما ادَّعت النصارى في نبيهم
واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

ويقول لوثر وكالفين (وهما مؤسسا المذهب المسيحي البروتستانتي) قالا لفولتير شاعر فرنسا الكبير: «نحن لا نصلح أن نكون حذائين لمحمد، ولو كان بيننا لغسلنا قدميه» تقديساً له واحتراماً.

زهد ﷺ في الدنيا فكان أبعد الناس عن شهواتها ومغرياتها؛ عرض عليه كبَّار مكة الكافرون أن يجعلوه ملكاً

(١) وما بعد ذلك من الأحاديث أخذت من كتاب قبس للمؤلف.

عليهم وأن يعطوه من المال ليكون أغناهم وأن يزوجوه أجمل نسائهم على أن يترك رسالة الإسلام فأبى، مع أنه كان أفقر الناس، وكان يسام سوء العذاب وليس له من ينصره إلا الله. وقد حاصره أهل مكة هو وأهله وأتباعه أربع سنين لا يكلمونهم ولا يطعمونهم ولا يعاملونهم حتى أكلوا ورق الشجر، فلم تلن قناته ولم تضعف عزيمته، وكم ربط الحجر والحجرين على بطنه ليسكن ألم الجوع. وقد حدث عنه بعض أهله أنه لم يشبع من خبز الشعير طيلة حياته.

وقال ﷺ: «عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً. فإن جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإن شبعت حمدتك وشكرتك»[1].

لقد كان يريد ويتمنى أن يؤمن الناس كلهم، وكم تألم من إعراض الناس عن الحق وعن سعادة الدارين حتى قال له ربه: ﴿فلا تَذْهَب نفسُكَ عَلَيهِمْ حَسرَاتٍ﴾[2]. كما كان حفياً بمن آمن به فمن ذلك قوله «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فمن ترك ديناً فعلي، ومن ترك مالاً فلورثته»[3] كما ساوى بين نفسه وبين المسلمين في عروض الدنيا فقد «مرَّت إبل الصدقة فأهوى بيده إلى وبرةٍ في جنب بعير فقال: ما أنا بأحق بهذه الوبرة من رجلٍ من المسلمين»[4]. ﷺ.

---

(١) الترمذي وأحمد.
(٢) فاطر ٨.
(٣) البخاري.
(٤) أحمد.

الفصل الخامس

الحديث الشريف

أنطق الله سبحانه لسان رسوله الكريم بالبيان الكامل والحكمة البالغة فلم يكن وما كان أحدٌ أفصح منه ولا أبين. وآتاه الله جوامع الكلم وعلمه سائر لغات العرب ولهجاتهم مع أنه لم يخالطهم وذلك لأن الله جعله معلماً للبشرية كافة وهادياً، وإماماً، كما قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلى المؤمِنينَ إذْ بَعثَ فيهم رَسُولاً مِنْ أنفسِهِمْ يَتلو عَلَيْهِم آياتِهِ وَيُزكيهِم وَيعلِّمُهُم الكِتابَ وَالحكمَةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبلُ لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ**﴾[1].

كان أسلوب النبي أبلغ أسلوب ويأتي بالدرجة الثانية بعد القرآن العظيم. لا يدانيه أسلوب شاعر ولا كتابة كاتب أو بلاغة خطيب، كلماته منتقاة جميلة مفهومة متداولة موضوعة في أماكنها، وجُمله مسبوكة كسبك الذهب يطرب لها السامع، لا تعقيد فيها ولا غموض، ولا تحتاج لشرحٍ أو قاموس سواء قصرت أو طالت.

أما معانيها فهي التشريع أو التفسير لكتاب الله أو الحكمة والتربية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو جلب منفعة

(١) آل عمران ١٦٤.

واتقاء ضرر، فهي أقوم طريق يوصل إلى السعادة والفلاح. حوت الكثير من علم الغيب والعلوم الدنيوية والأخروية.

لقد كان الشعراء والكتاب وسواهم يكدون الذهن ويتعلمون ويتعبون ويحفظون ما قيل قبلهم من شعر ونثر، وذلك ليتمكنوا من صياغة الشعر أو الكلام البليغ فتخرج على أقوالهم مسحة التقليد والتكلف والتصنع وانتحال المعاني ممن سبقهم.

أما محمد ﷺ فلم يكن كذلك، كان يقول كلامه عفواً دون تقليد فيعجز عن قول مثله أي إنسان؛ لذا كان كلام الشعراء والبلغاء كورق الشجر وكان كلامه الثمر؛ وهو مع كل ذلك جديد في أسلوبه وسبكه ومعناه.

وكم ذهب من أقواله مذهب الأمثال كقوله: «كل آتٍ قريب» «هذا يومٌ له ما بعده» «هدنة على دخن».

إلا أنه بعيد كل البعد عن أسلوب القرآن وبلاغته بعد المعجز عن الممكن، فهو قريب من قول البشر وبعيد من قول خالق البشر.

لهذا كان حديث الرسول ﷺ والقرآن العظيم الجامعة اللغوية والمدرسة الأدبية والكلية العلمية والتربوية، التي إن تعلم فيها أحد أصبح شاعراً أو كاتباً أو خطيباً، يزيد قدره

ومقدرته بمقدار ما نهل منها.

ولقد أوتي ﷺ الصوت الجميل وكان يتكلم بملىء فيه وبأكمل أداء وأعذب لهجة، مما أخذ بمجامع القلوب. وكانت كلماته محدودة بلا تكلف ولا تصنع، فصيحة في غاية الفصاحة، لا ركاكة فيها ولا اختلاف ولا لغو فيها ولا تضاد، يقبلها العقل بشغفٍ وإعجاب.

كان كلامه ﷺ قليل في معنى كثير، موجز تام البيان، وإذا لزم التطويل أطال مع الفصاحة حتى تصل بعض خطبه إلى الساعة والساعتين حسب اللزوم.

لم يكن حديثه ﷺ بالشعر ولا السجع ولا ما يشبه أقوال معاصريه بل كان متفرداً في بيانه. وكان يخاطب كل قوم أو عشيرة من العرب بلغتهم ولهجتهم على كثرتهم وكثرة اختلاف لهجاتهم وأقوالهم، إذ علمه الله سائر لهجاتهم ولغاتهم مع أنه لم يخالطهم أو يمكث بينهم، ومن الأمثلة على ذلك وهي كثيرة: أنه أرسل رسالة إلى ابن حجر الكندي أحد رؤساء حضرموت يقول فيها: «إلى الأقيال العباهلة، والأرواع المشابيب» وفيه: «وفي التيعة شاةٌ لا معروة الأنياط والأضناك وانطواء الثبجة، وفي السُيُوب الخمس، ومن زنى رمّم بكر فاصقعوه مائة، واستوضفوه عاماً، ومن زنى رمم ثيب فضرجوه بالأضاميم، ولا توصيب في الدين ولا غمة في فرائض الله تعالى، وكل مسكر حرام. وائل بن حجر يترقل الأقيال» وكثير أمثالها.

هذا ومن المعلوم أن كثرة مفردات العرب وكلماتها كثيرة جداً ومثلاً على ذلك كرمة العنب وما يتفرع عنها من ورق وعصير وسواه لها أكثر من عشرة آلاف اسم، وكذا جملهم ولهجاتهم كثيرة ومختلفة مما يستدعي تعلمها العمر الطويل والأسفار والاجتهاد مع أن النبي لم يسافر إلا أياماً معدودة إلى دمشق بقصد التجارة أو القتال.

ولنعد إلى أحاديث الرسول ﷺ بالتفصيل فإن كل ما قاله رسول الله ﷺ من تشريع وحكم وعلم وسواها كانت وحياً من الله سبحانه أو علماً لدنياً مباشراً دون معلم ولا مدرسة ولا كتاب. فقد قال الله سبحانه لرسوله الكريم: ﴿وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعلَمُ وكانَ فَضلُ الله عَلَيكَ عَظِيماً﴾[1] وقالت زوجته السيدة عائشة رضوان الله عليها: «كان جبريل ينزل على النبي بالسنَّة كما ينزل عليه بالقرآن»[2]، فكان ينزل القرآن باللفظ والمعنى، وينزل الحديث بالمعنى والفكرة والرسول ﷺ يصوغه بكلامه.

وأحاديث الرسول ﷺ كثيرة جداً حفظ منها بعض العلماء ما يقارب الـ (٦٠٠,٠٠٠) حديث، لم يأت بمثلها أو بأقل منها أحد. ولم يستطع الزمن أن ينقص من قيمتها أو يعارضها لأنها لم يكن فيها مبالغة ولا شطط ولا إسفاف ولا كذب ولا وهم أو خيال أو ظن أو فرضية. بل كانت الصدق والحكمة والعلم والواقع.

---

(١) النساء ١١٣.

(٢) الدارمي.

وإليك بعض أحاديثه ﷺ لتدرك مبلغ شأوه:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى»[1]، «الدين النصيحة»[2]، «آفة العلم النسيان وآفته أن تحدث به غير أهله»[3]، «الصبر عند أول الصدمة»[4]، «المرء مع من أحب»[5]، «الدين المعاملة»[6]، «لا ضرر ولا ضرار»[7].

﴿هُو الذي أرسلَ رَسُولهُ بالهُدى ودِينِ الحقِّ ليظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّه ولو كَرِهَ المُشركُونَ﴾[8].

---

(١) أحمد.

(٢) متفق عليه.

(٣) الحاكم.

(٤) البخاري.

(٥) متفق عليه.

(٦) أحمد.

(٧) مالك.

(٨) الصف ٩.

obeikandl.com

الفصل السادس

القرآن العظيم

الشمس التي أشرقت على الدنيا فأضاءت القلوب وأنارت العقول، وفتحت صفحة من التاريخ هي أجمل الصفحات وأرقى الفترات.

المعجزة الأبدية التي تطاولت لها همم البلغاء، وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم فعادوا خاسرين خسروا الدنيا والآخرة.

نبعت من آياته الحضارة، وازدهر به العلم، وتبدل وجه الزمن، وانتقلت البشرية من الإنسان الحجري، إلى مجتمع قام بخلافة الأرض فعمرها وسار فيها في البر والجو يسابق البرق، ويتلقف ما في الأرض من الخيرات.

هو نور الله في أفق الدنيا، باق حتى تزول الدول والشعوب، وهو باقٍ حفظه الله فنفثه في الصدور، وسير في ركابه الأقلام والسطور، وخدمه كل ما أنشأ الإنسان من وسائل الإعلام، كالطباعة والحاكي والمبصار والصحف ووسائل السير ﴿**إِنَّا نَحنُ نَزَّلْنا الذِّكْر وإنَّا لَهُ لحافِظُونَ**﴾[1].

---

(١) الحجر ٩.

هو السر الإلهي الذي لم تره العيون إلا تعلقت به القلوب فأحبته وحفظته ورددته الألسن، وسارت به الأقلام، تكتب آياته وتشرح معانيه وتفسره، تؤخذ عنه العلوم، وتحار فيه الأفهام، فلا غرو فهو كلام الله المعجز كخلق الله المعجز: ﴿وَإِنْ كُنتُم في رَيبٍ ممَّا نَزَّلْنا عَلى عَبدِنا فأْتُوا بِسُورةٍ مِنْ مثله وَادعوا شُهداءكُم مِنْ دُونِ الله إنْ كُنتُمْ صَادِقين. فإن لَمْ تَفعلُوا وَلَنْ تَفعلوا فاتَّقُوا النَّارَ التي وَقُودُها النَّاسُ والحجَارَةُ أُعِدَّت لِلكافِرينَ﴾[1].

و ﴿إنَّ الذين تَدعُون مِنْ دُوْنِ الله لنْ يخلُقوا ذُباباً ولَوِ اجْتمعُوا لهُ﴾[2].

هيهات! إنَّ إتيان الشمس من المغرب بدلاً من المشرق هو أهون من إتيان سورةٍ من مثله.

هو كتاب العلماء ﴿تَنْزِيْلٌ من الرَّحمنَ الرَّحيم. كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرآناً عَربياً لِقومٍ يَعلمُونَ﴾[3] ما قرأه عالم وفهمه إلا علم قدره ومقداره إن لم يؤمن به ويذعن له.

أنزل آيات متفرقات حسب الظروف والأحوال على رسول الله ﷺ فكان يتلوها على الناس ويعلمهم إياها فيحفظوها، ويأمرهم بكتابتها، حتى إذا انتقل إلى الرفيق الأعلى كانت

---

(١) البقرة ٢٤.

(٢) الحج ٧٣

(٣) فصلت

آيات القرآن مدونة عند الكثير من أصحابه، ومحفوظة في صدور الألوف.

تكفل الله سبحانه بجمعه كاملاً كما تكفل بحفظه إذ قال: ﴿لا تُحرِّكْ به لِسانَكَ لِتعْجَلَ به، إنَّ عَلَيْنا جَمعهُ وَقُرآنهُ﴾[1]، ومن هنا نرى كيف ألهم الخليفة أبو بكر رضي الله عنه جمعه في مصحف مدوَّن إذ وكل بذلك أقرأ الصحابة زيد بن ثابت مع بعض الحفاظ من الصحابة الكرام. فأخذ يجمعه من المكتوب مع مراعاة مطابقة المكتوب منه مع ما حفظ هو والصحابة في الصدور. ولما انتهى من ذلك عرضت النسخة على الصحابة فوافقوا عليها بالإجماع، ثم نُسخت منه نسخ وزعت على مصر والعراق وسوريا واليمن، وهذه النسخ لا تزال موجودة ومحفوظة في المتاحف وضبط عمرها بالأشعة. ومنها نسخة في متحف استانبول بتركيا وعليها دم الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وأخرى في بخارى وثالثة في بيروت.

ثم نسخت منه نسخ كثيرة بعد ذلك على موجبها كما حفظ الناس القرآن وحفظوه الناس فأصبحنا نجد الحفاظ بعشرات الألوف بل مئات الملايين، وكذا المصاحف بالملايين.

هكذا حفظ الله كلامه القديم، وصانه من أي تبديل أو

---

(١) القيامة ١٦، ١٧.

تحريف أو ضياع، فلم يتبدل منه حرف ولا كلمة ولا آية حتى ولا حركة. ولم يزاد عليه شيء كما لم ينقص منه شيء، وألهم الناس أن يحافظوا عليه ولو بأموالهم وأرواحهم.

ولنذكر أن أحد الملوك حاول أن يبين لوزيره الكافر صيانة القرآن وشدة حفظ المسلمين له، فأمر بإحضار أفقر الحفاظ، فحضر حافظ أعمى، فأعطاه مائة دينار ذهب ولاطفه بالكلام والوعود الحسنة ثم طلب منه أن يقرأ سورة تبت يدا أبي لهب.. فقرأها ولما وصل لآخرها ﴿في جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ فقال الملك ما معنى مسد؟ فقال: القارىء يعني حبل من ليف. فقال الملك أعد السورة واقرأ بدلاً من مسدٍ حبل من ليفٍ. فقال: يا سيدي الملك هذا كلام الله لا تبديل لكلماته. فقال الملك أقرأها مرة واحدة فقط وأعطيك ما تريد! فألقى القارىء الفقير المال في وجه الملك وقال: لأجل مالك يا دنس أبدِّل كلام الله؟! لا يمكن هذا أبداً وانصرف.

حفظ الله كتابه العزيز ليكون المنارة التي تهتدي بها البشرية في طريق السعادة الدائمة. وليكون النور الذي ينير ظلمات القلوب، ويخرجه من ظلمة الجهل والفساد إلى ضياء العلم والصلاح، لذا تبدل به المجتمع البشري وانصلح به الفرد والمجموع لأنه ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخرِجَ النَّاس مِنَ الظُّلُمات إلى النُّور بإذن رَبِّهِمْ﴾[1] وهو هدى وشفاء ورحمة

---

(١) ابراهيم ٢.

﴿وَنُنَزِّلُ مِن القُرآن ما هُو شفاءٌ وَرَحمةٌ لِلمُؤمنين﴾[1] فهو شافٍ للعقول من التيه والضلال والخرافات والأوهام والانحراف. شافٍ للصدور من الغل والحسد والحقد والغش شاف للجسد من سيئات الأعمال والأفعال، ومن ما هو ضار من إسرافٍ وشهوات قاتلة وعادات سيئة، شافٍ للمجتمع من الظلم والأنانية والاعتداء، شافٍ وشاف...

نزل القرآن في عصر محمد ﷺ ثم سابق الزمان فسبقه لذا نجده كلما تقدم به الزمن جديداً، يفهمه أهل كل عصر ويتعلمونه يستفيدون منه ما يؤمِّنُ لهم خير الدنيا والآخرة. كما يجده المؤمن والكافر والمحب له والمعادي له معجزاً صامداً لا يستطيع أحد أن يتعرض لتقليده أو النيل منه أو محاكاته، وإن فعل كان مجال السخرية كمن يضيء شمعة وسط النهار أمام الشمس.

وسنرى بعض ما فيه من عقيدةٍ وإبداع وعلم وحكمة وبيان.

---

(١) الاسراء ٨٢.

الفصل السابع

القرآن والصوت

ظهر في هذا الزمان علم الصوت، وأصبح الإنسان يتعلم بواسطته كيف ينطق الحرف والكلمة من تفخيم الحرف وترقيقه وإعلائه واستفاله وله أنشئت مدارس اللغة والموسيقى اللغوية وعولجت انحرافات الكلام واللكنات والفأفأت وسواها. هذا ما حدث في القرن العشرين.

أما القرآن الكريم فقد نزل من السماء منذ (١٤) قرناً بهذا العلم وسماه المسلمون علم التجويد. وبه طلب من كل قارىء أن يتعلمه ويقرأ به القرآن كما قال سبحانه: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[1] وجعل لكل حرف مخرجاً من جهاز التصويت كالهاء من الرئتين والقصبات والحاء من مضيق الحلقوم والقاف من أقصى اللسان والميم من الشفتين والخاء من الأنف وهكذا باقي الحروف، كلٌ له مخرجه الخاص به. وأوحى الرسول الكريم بالتغني به دون أن يخرج عن مقصوده ومعناه فقال ﷺ: «فمن لم يتغنَّ به فليس منا»[2]. وأوجد لكل حرفٍ اسماً خاصاً به، فأصبح كل حرف إذا قرىء مفرداً يلفظ اسمه بثلاث أحرف مثل (أ) يلفظ: ألف و (ل) يلفظ لام و (م) يلفظ ميم وهكذا. ثم أوجب أن يقرأ ببطء. وبذا فإن سامع

---

(١) المزمل ٤.

(٢) ابن ماجه.

القرآن لا يغيب عن سمعه حرف ولا كلمة مما يسهل فهمه. وجعل لكل حرف بضع صفات من ترقيق أو تفخيم وشدَّةٍ أو لين واستعلاء أو استفال وغنة وإدغام وإظهار وسواها مما أظهر لكل علم مستقل سمي علم التجويد.

وبذا كانت تلاوة القرآن بالتجويد تملأ القلب روعة وجلالاً وطرباً. ولا أزال أذكر أن أحد المغنين الناشئين سأل أشهر المغنين ماذا يجب عليّ أن أتعلم وأزاول لأحسن الغناء فقال له: تعلم تجويد القرآن وزاوله. ومعجزة أخرى صوتية وبيانية تحير الألباب، وهي نزول القرآن بسبع لهجات عربية هي لهجات أمهات القبائل العربية؛ مما سهل على العرب والمستعربين تلاوته وفهمه وحفظه. كما أن كل لهجة دلَّت على معنى جديد للآية وتشريع جديد، وهذه المعجزة ضبطت وجمعت فأصبح علماً خاصاً هو علم القراءات أُلفت فيه الكتب الطوال كالشاطبية والدرَّة وسواها.

وعلم آخر أخذ من القرآن وهو علم النحو إذ ضبطت به اللغة العربية. وعلم آخر أيضاً وهو أمْرُ الله في القراءة و"لكتابة وأمْر النبي ﷺ في تدوين آيات القرآن وسوره مما جعل الناس يكتبون المصاحف ويتداولونها فمن لم يستطع الحفظ استوهب مصحفاً ودفع فيه الكثير من الدراهم والدنانير أيضاً فأصبحت الكتابة صنعة ثم علماً وفناً جميلاً. وتهافت الناس على الكتابة والقراءة وهما خاصتان بنيت عليهما الحضارة والرقي والفنون.

الفصل الثامن

بيان القرآن

إن مفردات اللغة العربية ومفرداتها كثيرة جداً، وذلك لقدم اللغة وكثرة قبائلها وتفرقها واحتكاكها بمن حولها من الشعوب. كما أن كثيراً من الأشياء كان لكلٍ منها في اللغة أسماء كثيرة كالأسد مثلاً له ما يقارب المائة اسم مثل (الأسد، الفدوكس، الهزبر، الغضنفر، الليث، والسبع و . . .) وغيرها، ومن هذه الكلمات ما يدل على المعنى أو على الصفة أو المجاز؛ ومن هذه الكلمات ما يطرب لها السامع أو يستسيغه ومنها ما ينفر منه ويستهجنه.

ومن البيان والذوق الأدبي ما يجب أن ينتقي الأديب أفضل هذه الكلمات وأدقها وأجملها لوضعها في شعره أو كلامه. إلا أن عرب الجاهلية لم يأبهوا لهذا العمل ولم يعرفوه.

أما كلام الله تعالى فنضدت فيه أجمل الكلمات وأدقها وأفضلها وأبينها للمعنى وأسهلها في اللفظ وأقربها للقلب وألطفها في السمع وألزمها للجملة، حتى لو حاولت أن تبدل أي كلمة بغيرها لنباها السمع أو تغير المعنى أو أبهم ومجها الفكر. وهكذا ترى الكلمة تقودك إلى المعنى ولو لم تسمعها من قبل.

بهذه الكلمات الحلوة سبكت آيات الله سبحانه بشكل

لم يسبق له مثيل ولا يدانيه أسلوب. كلمات جميلة، معانيها دقيقة، جديدة في بلاغتها ومعانيها ومقاصدها وفوائدها وعلمها وظاهرها وباطنها وماضيها ومستقبلها. فهي فوق ما يتصوره العقل لكثرة ما جمع فيها، مما جعل الإعجاز في كل ناحية من نواحيها.

ومن إعجاز القرآن ربط كل آية بآية وسورة بسورة وجملة بجملة وبحث ببحث، حتى لو أسقطت في تلاوته آية أو كلمة ما بين آيتين ظهر لك النقص الواضح. ثم لا تجد تنافراً ولا تناكراً ولا خلافاً أو اختلافاً. دانت الألفاظ للمعاني فصورتها صوراً كأنها صور ملونة واضحة دقيقة وجميلة وكأنك إذ تتلوه وتتدبره كأنك أمام المبصار الملون أو أمام الواقع الواضح، ترى الحادث أو القصة كما هو.

وهو على مرِّ الأيام لا يزال جديداً في كل شيء، وفوق مقدرة البشر أن يأتوا بمثله أو ببعض من مثله. نشأت منه علوم البلاغة والبديع والبيان والاستعارة، والإيجاز والإطناب والتوكيد والمنطق وسواها. ولا عجب في ذلك فقد قال ﷺ: «وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحي إلي، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1].

لذا فالقرآن مع أنه المعجزة الكبرى فهو كلام الله خالق اللغات فليس فوقه معجزة، وهو وحي بمعانيه وألفاظه ومقاصده.

---

(١) أحمد.

الفصل التاسع

أثر القرآن في المجتمع

أعطي كل رسولٍ معجزة مادِّيه كعصا موسى يستعملها بيده ولا يستعملها سواه ولا فائدة منها إلا أنها برهان على الرسالة أنها من عند الله فإذا ما توفي الرسول زالت وانتهى أمرها وأصبحت خبراً تاريخياً.

أما معجزة القرآن فهي معجزة مادية ومعنوية. فالقرآن العظيم يستعمله الرسول وكل إنسان ويستفيد منه وهو باقٍ على إعجازه وفائدته ما دامت السماوات والأرض وحتى للأبد ونسخت منه نسخ وتوزعت في كل الأقطار والمدن وتكلم به وتغني به حتى سمعه ورآه كل إنسان واقتناه واستفاد منه ألوف الملايين. فهو هدية ممن كرمه غير محدود سبحانه إلى البشرية، فأصبح الهدية الدائمة، تؤتي أكلها كل وقت وفي أي مكان اهتدى بها الإنسان وانصلح وأصبح القرآن أستاذه ومؤنسه وأعزَّ ما عنده.

أما أثر القرآن في المجتمع فقد جمع قبائل العرب وقد كانوا متنافرين متناكرين مختلفين في العادات والنزعات واللهجات في اللغات، جمعهم على عقيدة واحدة وعادات واحدة ولغة واحدة، فأصبحوا أمة واحدة وصلح انحرافهم.

كل ذلك بلا قتال ولا مدرسة ولا مال بل بفضل الله وبالقرآن كما قال سبحانه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفتَ بَين قُلُوبهم ولَكِنَّ الله أَلَّف بَينهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حكيمٌ﴾[1].

بذلك أصبح للعرب بل لكافة المسلمين مجتمعاً مثالياً قوامه الصدق والمحبة والأمن ونظافة الفكر والقلب ومحاسن الأخلاق والحرية والأمن.

أثر القرآن في أدبهم فهذب لغتهم وجعلها لغة واحدة مهما بعدت بهم الديار، وزاد في بلاغتها وبيانها وقدَّسها وأبقى عليها وحببها حتى إلى أعدائها.

فكم من أمة زالت لغتها أو حرفت ثم أصبحت مجهولة أو متروكة. أما لغة القرآن فلا تزال جديدة تدرس في كل بلد وفي معظم جامعات الدنيا ومدارسها. ينطق بها ألف مليون مسلم إذ يقول كل منهم (لا إله إلا الله محمد رسول الله) كل يوم. ويقدسها ويدافع عنها.

وهكذا ترك العرب لهجاتهم وحتى تركت أمم أخرى لغاتها وتعلمت لغة القرآن، وتمسكت بها، وإن المسلمين مع تخلفهم مع الزمن واقتتالهم وذلهم وإلحاد بعضهم في أعماق قلوبهم لزوم البقاء على لغة القرآن والدِ ونبذ أي تبديل فيها أو تغيير. لهذا فلم تدون لها لهجات.

(١) الأنفال ٦٣.

أو لغات عربية جديدة، ولم تدرس ولم يضبط لها نحو جديد أو صرف. وذلك بعكس باقي اللغات كلغات الأوروبيين وأمريكا.

ولا غرو فاللغة العربية قدسها الله سبحانه فكلم بها البشر في الدنيا وسيكلمهم بها في الآخرة، فهي لغة أهل الجنة إذ قال رسول الله ﷺ: «يا سلمان أحب العرب لثلاث: نبيك عربي، وقرآنك عربي، ولسانك في الجنة عربي».

ولولا القرآن لذهبت لغة العرب وحتى العرب كما ذهبت لغة الفراعنة واليونان وأصبحت أثراً بعد عين.

obeikandl.com

الفصل العاشر

أثر القرآن في الجنسية

كان لكل أمة سبقت لغة فإن زالت لغتهم زالوا، كما إذا زالوا زالت لغتهم. فإن لم يحدث ذلك طرأ عليها التبديل والاشتقاق والتحريف أو زالت وزال أهلها فإن لم يزالوا اندمجوا بأمم أخرى أو انقسموا إلى أمم أخرى وأصبح لكل لغتهم واستحال عليهم أن يتفاهموا. كما أن كل لغة لم تجعل لأهلها ميزة على سواها من الأمم ولم يكن لها تأثير في بقائهم.

أما القرآن فكان حارساً للغة العرب جامعاً لأهلها وسبباً في بقائهم وبقائها. جمع العرب وأوجد لهم جنسية متميزة بأخلاقها وعاداتها وصفاتها وتقاليدها، وجعلها أمة محترمة مرهوبة الجانب محبوبة. فلا نجد مسلماً إلا وهو عربي أو مستعرب أو محب للعرب يحبهم ويتبارك بهم ويدين لهم ويدافع عنهم ولا يتنكر لهم، ومن أمثلة ذلك أن مسلمي روسيا رغم بعدهم عن دينهم وقد أرسلت روسيا جنوداً منهم ليحاربوا أفغانستان المسلمة فلما وصلوا إلى أفغانستان انضموا إلى الثوار الأفغانيين ليدافعوا عن الإسلام وعن لغة الإسلام كما كانوا يلقون إليهم بالأسلحة والذخائر والعتاد من طائراتهم وآلياتهم.

جعل القرآن من المسلمين أمة واحدة باسم أمة الإسلام لا فرق فيها بين عربي وغير عربي مهما اختلفت بهم الأوطان، مبدأهم واحد وكتابهم واحد ودينهم واحد كما قال تعالى: ﴿وإنَّ هذه أُمَّتكُم أُمَّةً وَاحِدةً، وأنا رَبكُمْ فَاتَّقونِ﴾[1] وقال ﷺ: «أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد. ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ألا هل بلغت؟»[2].

ومن أعجب ما في الإسلام والقرآن أن كل من قال: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وآمن بالقرآن اكتسب الجنسية الإسلامية وأصبح مثل أي فرد مسلم ونال كل امتيازات المسلم يرحب به المسلمون ويتعاونون وإياه وإن كان جاهلاً علموه وإن كان فقيراً أعطوه وأصبح أخاً لكل مسلم فعلى هويته مكتوب ﴿إنَّما المؤمِنُون إخوةٌ﴾[3]، هذا فضل القرآن ولولا القرآن لما كان عرب ولا لغة عربية وكانوا آثاراً عن بعض الأحجار كالفراعنة والرومان.

والقرآن رفع شأن المسلم فقال الله للمؤمنين: ﴿وَلا تَهِنُوا ولا تَحزَنوا وَأَنْتمُ الأعلَونَ إنْ كُنتُم مؤمنين﴾[4] وأعزُّ شأنهم

---

(١) المؤمنون ٥٢.

(٢) أحمد.

(٣) الحجرات ١٠.

(٤) آل عمران ١٣٩.

فقال: ﴿وَلِلَّهِ العِزةُ ولِرسُولِهِ وَلِلمؤمِنِين﴾[1] ﴿وكانَ حقاً عَلينا نَصرُ المؤمِنينَ﴾[2]. لذا لم يستطع الاستعمار بجيوشه وأسلحته أن ينال من المسلمين الحقيقيين أرباً. فقد عجز الجيش الافرنسي بكل قواه أن ينال من المسلمين على مدى السنين الطوال شيئاً فقال وزير الدفاع الافرنسي في البرلمان يوم اندحر جيشه (ماذا أصنع إن القرآن أقوى من فرنسا). كما حفظ القرآن جنسية المسلمين رغم جيوش وأساطيل إنكلترا حتى قال جلادستون رئيس وزرائهم في مجلس العموم البريطاني وحمل المصحف بيده ورفعه وقال: ما دام هذا موجود ليستحيل على إنكلترا أن تستقر في ديار المسلمين.

---

(١) المنافقون ٨.

(٢) الروم ٤٧.

الفصل الحادي عشر

آداب القرآن

أدَّب القرآن المسلم فأول ما أوجد فيه (الضمير) وهو الوازع من داخل الإنسان. فالمسلم يحاسب نفسه إن عمل خيراً فرح وإن عمل سوءاً حزن وخاف وصمم أن لا يعود وتاب. وذلك لأنه علم أن رب القرآن يراه ويسمعه ويراقبه ويطلع على سرِّه وعلانيته، وسيحاسبه، إن عمل خيراً فخير وإن شراً فشرّ ﴿فَمَن يَعمَلْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ، وَمَنَ يَعمَلْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1] ﴿إنَّ الله عليم بذات الصدور﴾[2].

وقد أعطى لكل إنسانٍ قدره فلا ينزله ضعفه أو فقره عن قدره، ولا ترفعه قوته أو غناه فوق قدره. إذ جعل الله الخُلُق الفاضل والعمل الصالح والإيمان هي الميزان الذي يزن الإنسان. وقد قال ﷺ: «أكثر ما يدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق»[3].

وأوجد في المسلم الرحمة والإحسان والكرم والتعاون وعمل الإنسان لنفسه ومبدئه وأمته والنصح والأمر بالمعروف

(١) الزلزلة ٧، ٨.

(٢) المائدة ٧.

(٣) أحمد.

والنهي عن المنكر والصدق والأمانة ﴿وَالعَصْرِ إِنَّ الإنسان لَفِي خُسرٍ إِلاَّ الَّذِيْنَ آمنوا وَعَملُوا الصَّالحاتِ وَتواصوا بِالحقِّ وتواصَوا بالصَّبْرِ﴾[1].

وهكذا نشأ الجيل المثالي على الصدق وعلو النفس وصفاء الطبع ورقة الجانب وبسط الجناح ورجاحة اليقين وسلامة القلب واتساع الصدر والعفة والأمانة وإقامة العدل والانقياد للحق و . . . الخ .

ووضع في الأرض الحرية الكاملة المعقولة في الاعتقاد ﴿لا إِكْراهَ في الدِّين﴾[2] وفي الملكية الخاصة، والمساواة فلا فرق بين مالك ومملوك كلهم متساوون في الحقوق، والفكر السليم والإدراك الواعي والاعتقاد اليقيني والمحبة والأمن والسلام .

---

(١) العصر ١ ـ ٣ .

(٢) البقرة ٢٥٦ .

الفصل الثاني عشر

القرآن والعلم

كان العلم قبل نزول القرآن مقتصراً على رجال الدين وبعض الأشراف وبعض الحكماء والفلاسفة. وكان علماً قليلاً تافهاً مملوءاً بالأوهام والخرافات والظن، استخدم لمقاصد خاصة كالسيطرة على الناس والاستعلاء عليهم والرئاسة وجلب المنافع، وللجدل وسواه.

ولما جاء القرآن أوجد للعلم ثوباً جديداً وروحاً ومقصداً جليلاً، ووضعه للناس كافة وفرضه على المسلم «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1] ورفع مكانته ومكانة أهله، وجعله مبنياً على الصدق والواقع والحق. وأوجد فيه البحث والتدقيق والتفكير ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ والأَرضِ﴾[2] ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبصِرونَ﴾[3]. وجعل له غاية ومنهجاً، فغايته المعرفة، وعمارة الأرض، وسعادة الدنيا والآخرة، وكيف نستفيد من الحياة ومن الأرض والسماء ومما حولنا. أي جعل العلم طريقاً إلى السعادة والرفاهية. وجعل العلم أساس الدين

---

(١) ابن ماجه.

(٢) الاعراف ١٨٥.

(٣) الذاريات ٢١.

وحياته وطريقاً إلى الجنة بالذات (العلم حياة الإسلام، وعماد الدين. ومن علم علماً أتمَّ الله أجره. ومن تعلم فعمل بعلمه علمه الله ما لم يعلم)[1].

والقرآن وحديث الرسول هما أصل النهضة العلمية بدءاً من القراءة والكتابة والبحث العلمي والتدقيق والتثبت، وأوجب العمل به والاستفادة منه، ثم تعليمه للناس، وحرم الغش به واستغلاله لغير مقاصده الشريفة. وحرم العلم الضار كالسحر والشعوذة.

فنشأ من القرآن مباشرة كثير من العلوم كالتجويد والنحو والبيان والبديع وعلم المفردات والقواميس والتفسير والفقه والأصول والتشريع والتوحيد والفلسفة المعقولة والفرائض وأصول الحكم والكتابة. ثم تبعها باقي العلوم. لذا كان الإسلام أبا العلوم، به بدأت وبأهله ازدهرت وعمت. ويكفي أن كتب تفاسير القرآن بلغت الألوف ومنها ما وصل لألف مجلد.

وبين أن الله سيطلع البشرية على سائر العلوم والآيات لقوله سبحانه ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

---

(١) الجامع الصغير.

(٢) فصلت ٥٣.

بسط الإسلام العلم وجعله يسير في ركاب الإسلام. فالعلم شرح القرآن وفسره وأيده وبين أنه الصدق وأنه الحق. وهنا نذكر كلمة للعالم المستشرق جرينيه (إنني تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبيعية والصحية والطبية والتي درستها من صغري وتعلمتها جيداً فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة فأسلمت، وذلك لأني تيقنت أن محمداً ﷺ أتى بالحق الصريح قبل أكثر من ألف سنة بدون أن يكون له معلم أو مدرس من البشر. ولو أن كل صاحب مهنة من المهن أو علم من العلوم قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم مقارنة جيدة كما قارنت لأسلم بلا شك، هذا إن كان عاقلاً خالياً من الأغراض.

ويكفي أن الله سبحانه ذكر العلم في كتابه العزيز أكثر من سبعمائة مرة وحضَّ عليه وقال أنه خاطب بهذا القرآن العلماء ﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرآناً عَرَبياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1]. وأول ما قال للإنسان ﴿اقرأ وربُّكَ الأَكْرَمُ، الذي عَلَّمَ بالقلم. عَلَّمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعلمْ﴾[2]. أي اقرأ ويعلمك الله ﴿الرَّحمن عَلَّم القُرآن﴾[3]. اقرأ أيها الإنسان وانظر في ملكوت السماوات والأرض ﴿وفي أَنْفُسِكُمْ أفلا تُبصرونَ﴾[4]،

---

(١) فصلت ٣.
(٢) العلق ٣ ـ ٥.
(٣) الرحمن ١ ـ ٢.
(٤) الذاريات ٢١.

وفكر ، فالله خلق لك العقل وسهل لك سبيل العلم وذلك على القلم والكتابة وأرسل لك رسوله الكريم فهو «إنما بعثت معلماً»[1]، وقال ﷺ أيضاً: «قيدوا العلم بالكتابة»[2] وحث الإسلام على العمل بالعلم والاستفادة منه لأن العلم ليس للزينة والتفاخر بل للعمل به فـ «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»[3]، كما حض على تعليمه للناس فقال ﷺ: «لأن تغدو فتعلم باباً من العلم عمل به أولم يعمل خير من أن تصلي ألف ركعة»[4]. وحرَّم كتمان العلم فـ «من سُئِل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار»[5].

لذا نرى أن الإسلام من بين الشرائع والأديان هو دين علم وعمل وضعه الله في الأرض في وقت كان الناس من حكام ورجال دين يحاربون العلم والعلماء وكم من عالم أعدم أو حرق أو سجن بسبب علمه.

لهذا قال الله تعالى: ﴿كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتلو عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكيكُمْ ويعلِّمكُمُ الكِتابَ وَالحِكمةَ، وَيعلِّمكُمْ مَا لَمْ تكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [6].

---

(١) ابن ماجه.

(٢) الحاكم.

(٣) البيهقي.

(٤) ابن ماجه.

(٥) أبوداود.

(٦) البقرة ١٥١.

الفصل الثالث عشر

العلماء

رفع الإسلام شأن العلماء كما رفع شأن العلم فقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذينَ آمنوا مِنكُمْ والَّذِيْنَ أوتوا العِلْمَ دَرَجَـات﴾[1] وجعـل «العلمـاء أمنـاء الله على خلقـه»[2]. والـواقع أن العلماء زينة الحياة وأساتذة العالم وقواده إلى السعادة في الدنيا والآخرة. وتقاس قوة الدولة ورقيها بعدد علمائها فـ ﴿هَلْ يَستوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِين لا يَعْلمـون إنَّما يَتذكَّرُ أولوا الألباب﴾[3]. هذا في الدنيا أما في الآخرة فـ «يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء»[4].

ومنزلة العالم تأتي بعد منزلة الأنبياء وهو وارثهم فـ «من غدا يريد العلم يتعلمه لله فتح له باب إلى الجنة وفرشت له المـلائكـة أكنـافها وصلت عليه ملائكة السماوات وحيتان البحور. وللعالم على العابد من الفضل كفضل القمر لليلة البدر على أصغر كوكب في السماء. والعلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورّثوا العلم، فمن

(١) المجادلة ١١.
(٢) الشهاب.
(٣) الزمر ٩.
(٤) الشيرازي.

أخذه أخذ بحظ وافر. وموت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة لا تُسد، وهو نجم طُمس، وموت قبيلة أيسر من موت عالم»[1].

هذه منزلة العالم على أن يتحلى بأخلاق الإسلام من صدق وإخلاص وحلم وحب للخير وكرم وترفع عن شهوات الدنيا وزخرفها ليكون له الوقت الكافي والفكر الصاحي لمتابعة التعلم والتعليم والبحث العلمي، وأن لا يكتم شيئاً من علمه وأن يعمل بعلمه ولا يقول ما لا يعلم فـ «من أفتي بغير علم كان إثمه على من أفتاه»[2]. ويتجنب الخلق السيء فـ «ويل لأمتي من علماء السوء»[3]، فهم ضارون وخطرون، وأن لا يرتمي على أبواب الملوك والأمراء فـ «إذا رأيت العالم يخالط السلطان مخالطة كثيرة فاعلم أنه لص»[4].

فالعالم هو الذي يريك آيات الله وخلقه وقوانين الكون وتدبير الله في ملكه ويدلك على كل ما هو أحسن وأكمل.

لذلك كانت مخالطة العلماء في الإسلام عبادة ولازمة فـ «مخالطة العلماء عبادة»[5]. ووجب احترامهم «إن من إجلال الله إكرام العلم والعلماء»[6] وحض على التعلم فـ «العالم والمتعلم شريكان في الأجر»[7].

---

(١) الطبراني.
(٢) أحمد.
(٣) الحاكم.
(٤) الديلمي.
(٥) الديلمي.
(٦) أبوداود.
(٧) الطبراني.

من هذا نعلم كيف أن الإسلام هو أصل العلم الحديث وسبب الحضارة الحديثة . وكيف بدّل التاريخ وقسم الزمن إلى قسمين: زمن جهل وضلال زال واندثر وزمن علم ونور.

obeikandl.com